طبول الغـــــابة

جاء فى أمثلة الأقدمين أن ثعلباً جائعاً كان يسير فى الغابة باحثاً عن طعامه وفجأة سمع صوتاً ضخماً تردد صداه فى أنحائها فأسرع إليه وإذا به طبل معلق فى شجرة وكلما حرك الهواء أغصانها ضربت الطبل فكانت تحدث ذلك الصوت الرهيب .

وسر الثعلب بهذا الصيد الثمين وأيقن أنه مكتنز لحماً وشحماً وسرعان ما أنشب فيه أظافره وأزال أديمه ولما أطل فيه وجده أجوف خالياً فقال فى نفسه : « أكل هذا الصوت لهذا الأديم الحقير » ثم لوى ذنبه وعاد أدراجه تحدوه الخيبة وتسير بين أربعه الندامة .

واليوم نرى المثل يتكرر ونشاهد طبولا تملأ محيطنا الضيق بإبراقها وأرعادها . وعند كشف حقيقتها لا تكون شيئاً ، وفى هذه الأيام ولظروف غامضة تنجلى هذه الحقيقة للأذهان بصورة واضحة وبين الشباب بصفة خاصة .

فبين هؤلاء الشباب فئة تفرض نفسها على الجمهور فرضا خاطبة ومتحدثة ومجادلة ولا تدع الوقت يمر دون أن تتعرض لكفاءاتها بالمدح والإشادة إن تصريحاً وإن تلميحاً ، وإذا جلست فى مجلس أخذت بناصيته واحتكرت الكلام فيه فما تدع فرصة لمتحدث وما تترك مجالا لمناقش ؛ هذا إذا كان الكلام سطحياً عاما لا يتركز فى فن أو علم فإن انحرف التيار إلى الاعماق وعطف ناحية الثقافة الحقة والعلم المجرد تغيرت وجوه المتكلمين الأماجد ولووا أعناقهم وحاولوا جهد استطاعتهم صرف الموضوع عن وجهته ، أو عملوا على إنهاء جلستهم وفى هذا ما يكفى شهادة على مايتمتع به هؤلاء العلماء الفطاحل من علم وثقافة .

ومن هؤلاء الشبان جماعة يجب أن تسمى « هدامة المشاريع ومقوضة الأنظمة » وتلك التى لا تكتفى بجهلها وإظهار الغرور لتغطيته وإنما تصر على أن يكون لها الكأس المعلى فى كل أمر عام فيه جمهور وفيه ضجة وفيه مظاهر استعراض فلا تلبث بجهلها وقلة إدراكها أن تحول النظام إلى فوضى والخير إلى شر وقد علمت أنها لا تعرف عن طريق الخير فأرادت أن تعرف عن طريق الشر متوخية فى حياتها قول الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما
يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

ومن هؤلاء أيضاً زمرة أجادت التأنق وبرعت فيه فلا يسير الفرد منها إلا وقد تعطر وألقى على كتفيه العباءة المزركشة وأمال العقال وشبك السبحة فى أصابعه ، فلا يلتفت إن سار ولا يسير إن وقف ! ! لا ينظر إلا شزراً ولا يحيى إلا نزراً .

وهذه الفئة كقطيع السوام لا ينفعها إلا الصمت ويحسن معها المثل القائل : إن « السكوت من ذهب » ولكن لو شاء الظرف السيء أن تتكلم فلن يكون كلامها من فضة كما قيل وإنما سيكون من تبن الماشية وخشاش الأرض وجل وجه القارىء الكريم .

ثم هناك فوارس العصر وهم جملة من الذين أنعم الله عليهم فاشتروا السيارات الفارهة وقدر لهم بعض من الذكاء فتمكنوا من قيادتها تراهم يسيرون فى الشوارع يسابقون الطير كأنهم هم الذين اخترعوها وركبوا آلاتها لا ينظرون إلى من حولهم من عباد الله المشاة ولا يحاولون تدارك أرواح البشر وقد يحلو لبعضهم أن يداعب المارة فيصفر الصفير المزعج أو يضايقهم على الرصيف ، وقد يسر بعضهم من إظهار تفوقه فى القيادة فيسحق تحت العجلة بعض الرءوس الآدمية ثمناً لهذه اللعبة البارعة .

ولو سألت هؤلاء المنعمين المترفين عما تضمه سياراتهم من آلات وطلبت إليهم شرح ذلك لوقفوا مذهولين ! لأنهم لا يعلمون ما وراء العجلة شيئاً ولو وقفت بهم مطاياهم فى منقطع ناء لعزت عليهم الحياة . فهم طبول الغابة تطل من النوافذ فى عرائس المركبات وهم من التى عناها الشاعر بقوله :

على وجه سلمى مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الشين لو كان باديا

فاذا سمعت ياصاحى جعجعة ولم تر طحناً فاعلم أنها صادرة من مصانع طبول الغابة ودفافها ، وإذا هزك جبل يتمخض ثم ولد فأراً فاعلم بأن القابلة كانت طبلا .

مدرسة النجاح — عبد الله أحمد حسين